بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله القديمِ فلا أوّل لوجوده، الدائمِ الكريمِ فلا آخر لبقائه ولا نهاية لجوده، الملكِ حقاً فلا تُـدرك العقولُ حقيقـةَ كُنْهه[1]، القـادرِ فكلّ مـا في العالم من أثـرِ قُدْرَتـه، المقدَّسِ فلا تقرب الحوادث[2] حماه، المنزَّهِ عن التغيير[3] فلا ينجو منه سـواه، مُصَرِّفِ[4] الخـلائق بين رَفْـعٍ وخَفضٍ، وبَسْطٍ وقَبْض، وإبـرامٍ ونقض، وإمـاتـةٍ وإحيـاء، وإيجـادٍ وإفنـاء، وإسعادٍ وإضـلال، وإعزازٍ وإذلال، يؤتي المُلْكَ مَنْ يشـاء، وينزعـه ممّن يشـاء، ويُعـزّ مَنْ يشاء، ويُـذلّ مَن يشاء، بيـده الخير وهـو على كلّ شيء قـدير[5]، مبيـد القـرون السالفة، والأمم الخالفة، لم يمنعهم منه ما اتخذوه معقلاً وحِرْزاً فـ ﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً**﴾[6]، بتقديره النفع والضرّ، و ﴿**لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْـرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ**﴾[7].

أحمـدهُ على مَا أَوْلى من نِعَمـه، وأجزل للنـاس[8] من قسمه، وأصلّي على رسـولـه محمدٍ سيدِ العرب والعجم، المبعوث إلى جميع الأمم، وعلى آله وأصحابه أعلام الهدى ومصابيح الظُّلَم. صلّى الله عليه وعليهم وسلّم.

أمّا بعد، فإنّي لم أزل محبّاً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، مؤثـراً للإطّـلاع على الجليّ من حـوادثها وخـافيها، مـائلاً إلى المعـارف والآداب والتجارب المـودَعَة في مطاويها، فلمّا تأمّلتُها رأيتُها متباينةً في تحصيل الغَرَض، يكاد جوهرُ المعرفة بها يستحيـل

(١) في نسخة كلية تايلور (مملكته). وسأرمز إليها بحرف (ت). وفي نسخة راولنسـن (حقائق المملكة) وسـأرمز إليها بحرف (ر).

(٢) في مخطوطة برلين (الخواطر). وسأرمز إليها بحرف (ب).

(٣) في (ر) التغير.

(٤) في (ت) متصرف.

(٥) اقتباس من آل عمران/٢٦.

(٦) مريم/٩٨.

(٧) الأعراف/٥٤.

(٨) في ت وب (لنا) وفي ر (وأجزل له).

إلى العَرَض، فمن بين مُطَوِّلٍ قد استقصى الطُرُقَ والروايات، ومُخْتَصِرٍ قد أخلّ بكثيرٍ ممّا هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلُّهم العظيم من الحادثات، والمشهور من الكائنات. وسوّد كثيرٌ منهم الأوراقَ بصغائر الأمور التي الإعراضُ عنها أولى، وتركُ تسطيرها أحرى، كقولهم خلع فلانٍ الذمّي صاحب[1] العيار، وزاد رطلاً في الأسعار، وأكرم فلان؛ وأهين فلان، وقد أرّخ كُلٌّ منهم إلى زمانه وجاء بعده مَنْ ذَيّلَ عليه، وأضاف المتجدّدات بعد[2] تاريخه إليه. والشرقيّ منهم قد أخلّ بذكر أخبارِ الغرب[3]، والغربيّ قد أهمل أحوال الشرق؛ فكان الطالبُ إذا أراد أن يُطالع تاريخاً متّصلاً إلى وقته يحتاج إلى مجلّدات كثيرة وكتبٍ متعدّدة[4] مع ما فيها من الإخلال والإملال.

فلمّا رأيتُ الأمر كذلك شرعتُ في تأليف تاريخٍ جامعٍ لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، ليكون تذكرةً لي أراجعُه خوفَ النسيان، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أوّل الزمان، متتابعةً يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا.

ولا أقولُ إني أتيتُ على جميع الحوادث المتعلّقة بالتاريخ، فإنّ مَنْ هو بالموصل[5] لا بدّ أن يشذّ عنه ما هو بأقصى[6] الشرق والغرب، ولكن أقول إنني قد جمعتُ في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومَنْ تأمّله علم صحّة ذلك.

فابتدأتُ بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبريُّ[7] إذ هو الكتابُ المعوَّلُ عند الكافة عليه، والمرجوعُ عند الاختلاف إليه، فأخذتُ ما فيه من جميع

---

(١) في ر (خلع على فلان الذي كان صاحب).
(٢) في الأصل «بعض».
(٣) في ر (أحوال الغرب).
(٤) في الأصل «عديدة».
(٥) بلد المؤلّف.
(٦) في ر (ما يتجدّد بأقصى).
(٧) هو المؤرّخ المشهور محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ. وكتابه هو: «تاريخ الرسل والملوك»، حقّقه «محمد أبو الفضل إبراهيم» ونشرته دار المعارف بمصر في ١٠ مجلّدات.
أنظر ترجمة الطبري في: الفهرست لابن النديم ٢٣٤/١، تاريخ بغداد للخطيب ١٦٢/٢، معجم الأدباء ٤٠/١٨، المنتظم لابن الجوزي ١٧٠/٦، تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٧٨/٢ رقم ٨، إنباه الرواة للقفطي ٨٩/٣، اللباب لابن الأثير ٨١/٢، وفيات الأعيان لابن خلّكان ١٩١/٤ رقم ٥٧٠، تذكرة الحفّاظ للذهبي ٢٥١/٢، ميزان الاعتدال ٤٩٨/٣، دول الإسلام ١٨٧/١، العبر ١٤٦/٢، طبقات الشافعية للسبكي ١٣٥/٢، البداية والنهاية لابن كثير ١٤٥/١١، الوافي بالوفيات للصفدي ٢٨٤/٢ رقم ٧٢٠، لسان الميزان لابن حجر ١٠٠/٥، غاية النهاية لابن الجزري ١٠٦/٢، الوفيات لابن قنفذ ٢٠٣، شذرات الذهب ٢٦٠/٢، طبقات المفسّرين للداودي ١٠٦/٢ رقم ٤٦٨، طبقات الفقهاء للشيرازي ٧٦، معرفة القراء الكبار ٢١٣/١، طبقات المفسّرين للسيوطي ٣٠، مرآة الجنان لليافعي ٢٦١/٢، المقفّى للمقريزي =

تراجمه، لم أخلّ[1] بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عددٍ، كلّ رواية منها مثلُ التي قبلها أو أقلّ منها، وربّما زاد الشيءَ اليسير أو نقصه[2]، فقصدتُ أتمّ الروايات فنقلتُها وأضفتُ إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعتُ كلّ شيء مكانه، فجاء جميعُ ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً على ما تراه.

فلمّا فرغتُ منه أخذتُ غيره من التواريخ المشهورة فطالعتُها وأضفتُ منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ووضعتُ كلّ شيء منها موضعه، إلّا ما يتعلّق بما جرى بين أصحاب[3] رسول الله ﷺ، فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئاً، إلّا ما فيه زيادةُ بيانٍ، أو اسم إنسان، أو ما لا يُطعن[4] على أحد منهم في نقله، وإنّما اعتمدتُ عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقنُ حقّاً، الجامعُ علماً وصحّة اعتقاد[5] وصدقاً.

على أني لم أنقل إلّا من التواريخ المذكورة، والكتب المشهورة، ممّن يُعلم بصدقهم فيما نقلوه، وصحّة ما دوّنوه، ولم أكن كالخابط[6] في ظلماءِ الليالي، ولا كمن يجمع الحصباء واللآلي[7].

ورأيتهم أيضاً يذكرون الحادثة الواحدة في سنين، ويذكرون منها في كلّ شهر أشياء، فتأتي الحادثةُ[8] مقطّعة لا يُحصلُ منها على غرض، ولا تُفهم إلّا بعد إمعان النظر. فجمعتُ أنا الحادثة في موضع واحد وذكرتُ كلّ شيء منها في أيّ شهر أو سنة كانت، فأتت متناسقة متتابعة، قد أخذ بعضُها برقاب بعض.

وذكرتُ في كلّ سنةٍ لكلّ حادثة كبيرة مشهورة ترجمةً تخصّها. فأمّا الحوادثُ

= ١٨٢/١، روضات الجنّات للخوانساري ١٦٣، فهرسة ابن خير، النجوم الزاهرة ٢٠٥/٣، مفتاح السعادة لطاشكبري زاده ٢٠٥/١ و ٤١٥، تنقيح المقال للمامقاني ٩٠/٢، كشف الظنون ٣٣ و ٤٢ و ٢٩٧ و ٤٣٧ و ٥١٤ و ٥٧٦ و ١٠٤٦ و ١٤٢٩ و ١٤٤٩، إيضاح المكنون ٣١٨/٢ و ٣٥٢، هدية العارفين ٢٦/٢، كنوز الأجداد لمحمد كرد علي ١١٧ ـ ١٢٣، تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٥٠٦/١، الأعلام للزركلي ٢٩٤/٦، معجم المؤلّفين لكحّالة ١٤٧/٩، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ٥١٨/١ رقم ٣٢ وانظر مقدّمة محمد أبو الفضل إبراهيم في المجلّد الأول الذي حقّقه من تاريخه ١٩٦٠، وستأتي ترجمته في هذا الكتاب في موضعها.

(١) في ت، ب (أخذ).
(٢) في الأصل و (ر) بعضه.
(٣) في ر (من أصحاب).
(٤) في ت، ب (طعن) وفي ر (مطعن).
(٥) في الأصل (اعتقاداً).
(٦) في الأصل و (ر): كالحاطب.
(٧) في (ر): بجمع من بين الحصباء واللآلي.
(٨) في (ر) الحادثة الواحدة.

الصغار التي لا يحتمل منها كلّ شيء ترجمة فإنّني أفردتُ لجميعها ترجمةً واحدةً في آخر كلّ سنة[1]، فأقول: ذِكْر عدة حوادث. وإذا ذكرتُ بعض من نَبَغ ومَلَكَ قُطراً من البلاد ولم تطل أيّامه فإني أذكر جميع حاله من أوّله إلى آخره، عند ابتداء أمره، لأنّه إذا تفرق خبره لم يُعرف للجهل به.

وذكرتُ في آخر كلّ سنةٍ مَنْ توفّي فيها من مشهوري العلماء والأعيان والفُضلاء. وضبطت الأسماء المشتبهة المؤتلفة في الخط المختلفة في اللّفظ الواردة فيه بالحروف ضبطاً يزيل الإشكال، ويُغني عن الإنقاط[2] والأشكال[3].

فلمّا جمعتُ أكثره أعرضتُ عنه مدّةً طويلة لحوادث تجددت، وقواطع توالت وتعدّدت، ولأن معرفتي بهذا النوع كملت وتمت.

ثمّ إن نفراً من إخواني، وذوي المعارف والفضائل من خُلاّني، ممّن أرى محادثتهم نهاية أوطاري، وأعدّهم من أماثل مُجالسيَّ[4] وسُمّاري، رغبوا إليّ في أن يسمعوه مني، ليروُوه[5] عني؛ فاعتذرت بالإعراض عنه وعدم الفراغ منه، فإنّني لم أعاود مطالعة مسوّدته ولم أصلح ما أصلح[6] فيها من غلط وسهو، ولا أسقطتُ منها ما يحتاج إلى إسقاط ومحو. وطالت المراجعة مدّةً وهم للطلب ملازمون، وعن الإعراض مُعرضون، وشرعوا في سماعه قبل إتمامه وإصلاحه، وإثبات ما تمسّ الحاجة إليه وحذف ما لابدّ من اطّراحه، والعزمُ على إتمامه فاترٌ، والعجز ظاهر[7]، للاشتغال بما لا بدّ منه، لعدم المُعينِ والمُظاهر؛ ولهموم توالت، ونوائبَ تتابعتْ، فأنا ملازمُ الإهمال والتواني، فلا أقول: إني لأسير إليه سير الشواني[8].

فبينما الأمر كذلك إذ برز أمرُ مَنْ طاعتُه فرضٌ واجب، واتّباع أمره حكمٌ لازب، مَنْ

---

(١) في الأصل (كبيرة).

(٢) في الأصل (الإيقاظ).

(٣) إضافة من نسختي: ت و ب.

(٤) في ب (جلسائي).

(٥) في ر (لينقلوه).

(٦) إضافة من نسختي: ب، ر.

(٧) العبارة في الأصل مضطربة «والعزم على إتمامه فاتر والعجز ظاهر».

(٨) في الأصل «التواني»، والشواني: جمع شونة، أوشيني. وهي أقدم أنواع السفن. قال الزبيدي في التاج: الشونة: المركب المُعَدّ للجهاد في البحر. وجاء في المستدرك: الشين المركب الطويل. وقد ظلّ اسم شيني متداولاً في الملاحة حتى أيّام الدولة العثمانية. (البحرية في مصر الاسلامية للدكتورة سعاد ماهر - ص ٣٥٢، ٣٥٣ رقم ٨٧ - طبعة دار الكاتب العربي بمصر) ووردت في النسخة (ر): الواني.

أعـلاقُ الفضل بـإقبالـه عليها[١] نـافقة، وأرواحِ الجهـل بإعـراضه عنهـا نافقـة[٢]؛ مَنْ أحيا المكارمَ وكانت أمـواتاً، وأعـادها خَلْقـاً جديـداً بعد أن كـانت رُفاتـاً؛ مَنْ عَمّ رعيّتَه عـدلُه ونوالُه، وشملهم إحسانُه وإفضالُه؛ مولانا مالك الملك الرحيم، العالم المؤيَّد، المنصور، المـظفر بـدر الـدين[٣]، ركن الإسـلام والمسلمين، محيي العـدل في العـالمين، خلّد الله دولته.

فحينئذ ألقيت عني جلباب المهل، وأبطلت[٤] رداء الكسل، وألَقْتُ الدواة وأصلحتُ القلم، وقلت: هـذا أوانُ الشدّ فـاشتدّي زِيَم، وجعلت الفـراغ أهمّ مطلب، وإذا أراد الله أمراً هيّأ له السبب، وشرعتُ في إتمامه مسابقاً، ومن العجب أن السكّيتَ يـرومُ أن يجيء سـابقاً، ونصبتُ نفسي غَـرَضاً[٥] للسهـام، وجعلتُها مـظنّة لأقـوال اللّوام، لأنّ المآخـذ إذا كـانت تتطرّق إلى التصنيف المهـذّب، والاستدراكـات تتعلّق بالمجمـوع المرتّب، الـذي تكرّرتْ مطالعتُه وتنقيحه، وأُجيـد تأليفـه وتصحيحُه، فهي بغيـره أَوْلَى، وبه أحـرى، على أنّي مُقرّ بالتقصير، فلا أقول إنّ الغلط سهوٌ جرى به القلم، بل أعترف بـأن ما أجهـل أكثر ممّا أعلم.

وقد سمّيتُه اسماً يُناسبُ معناه، وهو: **الكامل في التاريخ**.

ولقـد رأيتُ جماعـة ممّن يدّعي المعـرفة والـدراية، ويـظنّ بنفسه التبحّـر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها، ويُعرِضُ عنها ويلغيها، ظنّاً منه أنّ غاية[٦] فائدتهـا إنّما هو القصَصُ والأخبار، ونهـايةَ معـرفتها الأحـاديث والأسمار، وهـذه حالُ مَن اقتصَـرَ على القشـر دون اللبّ نظرهُ، وأصبـح مخشلباً[٧] جـوهره، ومن رزقـه الله طبعاً سليمـاً، وهـداه صراطاً مستقيماً، علم أنّ فوائدها كثيرة، ومنافعهـا الدنيـويّة والأخـرويّة جمّـة غزيـرة، وها نحن نذكر شيئاً ممّا ظهر لنا فيها، ونكلُ إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها.

فأمّا فوائدها الدنيويّة فمنها: أنّ الإنسان لا يخفى[٨] أنّه يحبّ البقاء، ويؤثِرُ أن يكون

---

(١) في الأصل «عليه».

(٢) في ب (نافغة) وهو تحريف.

(٣) هو: بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي، الملقّب بالملك الرحيم، صاحب الموصل. توفي سنة ٦٥٧ هـ. (أنظر ترجمته ومصادرها في: الأعلام للزركلي ٦/١١١).

(٤) في الأصل ونسخة ر (أمطت).

(٥) في الأصل «عرضاً».

(٦) في الأصل «انه غاية».

(٧) المخشلب: خرز يُتّخَذُ منه حُليّ، واحدته مخشلبة. (المخصّص لابن سيده).

(٨) في الأصل ونسخة ر (لإخفاء به).

في زمرة الأحياء، فيا ليت شِعري! أيّ فـرق بين ما رآه أمس أو سمعـه، وبين ما قـرأه في الكتب المتضمّنة أخبار الماضين وحوادث المتقدّمين؟ فإذا طـالعها فكـأنّه عـاصرهـم، وإذا علمها فكأنّه حاضَرَهم.

ومنهـا: أن الملوك ومَنْ إليهم الأمرُ والنّهْيُ إذا وقفـوا على مـا فيهـا من سيـرة أهـل الجـور والعدوان ورأوهـا مدوَّنـةً في الكتب يتنـاقلهـا النـاس، فيـرويهـا خلفٌ عن سلف، ونَظروا إلى ما أعقبت من سوء الذِكْر، وقبيح الأحدوثة، وخـراب البلاد[1]، وهـلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال، استقبحوها، وأعرضوا عنها واطَّرحـوها. وإذا رأوا سيـرة الوُلاة العادلين وحسنها، وما يتبعهم من الذِكْر الجميل بعد ذهابهم، وأنّ بلادهم وممالكهم عمرت، وأموالها دَرّت، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابـروا عليه وتـركوا مـا يُنافيـه، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة[2] التي دفعوا بها مَضَرّات الأعـداء، وخلصوا بها من المهالك، واستصانوا[3] نفائس المدن وعظيم الممالك. ولـو لم يكن فيها غيـر هذا لكفى به فخراً.

ومنها ما يحصلُ للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث ومـا تصير إليـه عواقبهـا، فإنّه لا يحدث أمر إلاّ قد تقدّم هـو أو نظيـره، فيزدادُ بـذلك عقـلاً، ويُصبح لأن يُقتـدى به أهلاً. ولقد أحسن القائل حيث يقول شعراً:

رأيـتُ الـعـقـلَ عـقـلـين ... فـمـطـبـوعٌ[4] ومـسـمـوعُ
فـلا يـنـفَـعُ مـسـمـوعٌ ... إذا لـم يـكُ مَـطـبـوعُ
كـمـا لا تـنـفـعُ الـشّـمـسُ ... وضـوءُ الـعـينِ ممـنـوعُ[5]

يعني بالمطبوع العقل الغريزي الذي خلقه الله تعالى للإنسان، وبالمسموع ما يزداد به العقل الغريزي من التجربة، وجعله عقلاً ثانيـاً توسّعـاً وتعظيمـاً له، وإلاّ فهـو زيادة في عقله الأوّل.

ومنها ما يتجمّـلُ به الإنسـانُ في المجالس والمحـافل من ذكـر شيءٍ من معارفهـا، ونقل طريفة من طرائفها، فترى الأسماع مصغيةً إليه، والوجوه مقبلةً عليه، والقلوب متأمّلةً ما يورده ويصدره، مستحسنةً ما يذكره.

---

(١) في النسخة (ر) خراب الديار.
(٢) في النسخة (ر) الصافية.
(٣) في الأصل و (ر) استضافوا.
(٤) في النسخة (ر): العقل عقلان مطبوع.
(٥) عن الأصل ونسخة (ر).

وأمّا الفوائد الأخرويّة فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكّر فيها، ورأى تقلّب الدنيا بأهلها، وتَتَابُعَ نكباتها إلى أعيان قاطنيها، وأنّها سلبت نفوسَهم وذخائرهم، وأعدمتْ أصاغرهم وأكابرهم، فلم تُبْقِ على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدِها غنيّ ولا فقير، زهد فيها وأعرض عنها، وأقبل على التزوّد للآخرة منها، ورغب في دار تنَزَّهتْ عن هذه الخصائص، وسلم أهلُها من هذه النقائص، ولعلّ قائلاً يقول: ما نرى ناظراً فيها زهد في الدنيا، وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا، فيا ليت شعري! كم رأى هذا القائل قارئاً[1] للقرآن العزيز، وهو سيّد المواعظ وأفصح الكلام، يطلب به اليسير من هذا الحطام؟ فإنّ القلوب مولعة بحبّ العاجل.

ومنها التخلّق بالصبر والتأسّي وهما من محاسنِ الأخلاق. فإنّ العاقل إذا رأى أنّ مصاب[2] الدنيا لم يَسْلم منه نبي مكرَّم، ولا ملك معظَّم، بل ولا أحدٌ من البشر، علم أنّه يصيبه ما أصابهم، وينوبه ما نابهم. شعراً:

وهل أنا إلّا من غَزِيّة إنْ غوَتْ غويتُ وإنْ تَرْشُدْ غزيّةُ أرشُدِ

ولهذه الحكمة وردت القِصَصُ في القرآن المجيد **﴿إنّ في ذَلِكَ لَذِكرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾**[3]. فإن ظنّ هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الحكايات والأسمار فقد تمسّك من أقوال الزيغ[4] بمحكم سببها حيث قالوا: هذه أساطير الأوّلين اكتتبها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلباً عَقولاً ولساناً صادقاً، ويوفّقنا للسّداد في القول والعمل، وهو حسبُنا ونِعم الوكيل.

---

(١) في نسخة (ر): من قارىء.

(٢) في الأصل ونسخة (ر): شر.

(٣) سورة قٓ /٣٧.

(٤) في نسخة (ر) أقوال أهل الزيغ.